

## مدخل :

### لماذا الكلام من فضة والسكوت من ذهب؟

عندما كنت طفلة لم تكن لديّ أسرار. وباعتباري كنت أخضع لتربية كاثوليكية صارمة، كان إيماني شديداً بأن الله يرى كل شيء. ومجرد محاولة أن أخفي عنه شيئاً كان يجب الاعتراف به والتكفير عنه بتلاوة الصلاة الربانية «أبانا الذي» مرتين، وتلاوة تحية جبريل للعذراء «السلام عليك يا مريم» مرة وأنا راكعة على أرض الكنيسة الباردة. أتذكر مرة عندما كنت في الثامنة من عمري تقريباً كيف بقيت في مخبئي في الحديقة وشككت بأن ذلك لم يكن مخبأً حقيقياً لأنه «في علاه» لا يخفى عليه ذلك. لم يكن ذلك يعجبني، ومجرد ذلك الاعتراض الصغير أثار بدوره مشاعر منغصة؛ لأنني لم أستطع أن أخفي عنه حتى مثل هذه الأفكار المحرّمة.

فيما بعد عندما كبرت قليلاً خفّ إيماني بالقدرة الإلهية الكلية شيئاً فشيئاً؛ إذ استطعت أن أحتفظ لنفسني ببعض الأسرار. فعلى سبيل المثال عهدت بأفكاري «بصفتي شابة» بصورة منتظمة إلى دفتر مذكراتي.

وبادئ ذي بدء كتبت على الصفحة الأولى، كما يقال، لدرء أي تدخل من قبل الآخرين: «مذكرتي العزيزة، ما أكتبه هنا يجب ألا يقرأه إنسان آخر، لأنه سر».

ولا داعي هنا للقول إن دفتر مذكراتي كان بطبيعة الحال قصراً صغيراً، لكن لا كلماتي السحرية ولا القصر استطاعا الحيلولة دون اطلاع والدتي ذات يوم على أسراي. كانت تريد أن تعرف مدى براءة عشقي لابن الجيران، وقد كشفت ذلك مذكراتي، الأمر الذي تسبب لي بتعنيف شديد وثلاثة أيام من الإقامة الجبرية في البيت. وبالإضافة إلى معرفة أن كتمان السر أمر في غاية الصعوبة.

حتى فيما بعد لم تحدث لدي تغيرات إيجابية بالضرورة عندما أردت أن أبقى على سرية أمر ما. فإما كنت أفضح سري من تلقاء نفسي. («لكنك قلت بأنك كنت عند صديقتك والآن تقولين إن صديقتك قد سافرت في إجازة!») أو أن ضميري كان يعذبني إلى أن أكشف السر. ومع مقدمة من يقر بذنبه «يجب عليّ أن أعترف لك . . .» كنت أبوح لوالدتي بأنني تغييت عن المدرسة، أو اشتريت أكياس البطاطا المقلية (شيبس)، التي كان محرماً عليّ شراؤها، أو أنني كنت أتزلج على الجليد بدلاً من أخذ دروس تقوية؛ إنها ذنوب صغيرة من وجهة نظر البالغين، لكن آنذاك، ودون أن أدرك ذلك، صنفت أسراي البريئة الصغيرة وكأنها أمر سيئ ومستكر.

وقد كان للتربية الكاثوليكية أثر طويل المدى لأن على الإنسان السوي ألا يخفي شيئاً، وكنت مقتنعة بذلك.

أما ميلي نحو تصنيف الأسرار وكأنها أمر سيئ فقد لازمني حتى سن البلوغ. كنت أرى أن من البديهي والمنطقي أن أطالب نفسي، والآخرين طبعاً، بالصراحة المطلقة، صراحة لا تقف عند أفكار المحيطين بي. «بماذا تفكرين الآن؟» سؤال كان يُطرح دائماً حيث كنت أتقاضى عنه عمداً لأن الأفكار حرة كما هو معروف. وبالعكس كنت أتجاهل الانزعاج الذي يتولد لدي عندما يوجه لي هذا السؤال. وبناء على ما ينسجم كل الانسجام مع قناعتي كنت أجري حساباتي.

### هل أنت مستعد للكلام؟

كانت القناعة بأن الحفاظ على السر ليس في عداد الأشياء الحسنة في الحياة، تلاقي تجاوباً كبيراً عندما بدأت في سبعينيات القرن العشرين بدراسة علم النفس. والآن تأكد لي ذلك من وجهة نظر علم النفس التي كانت سائدة آنذاك بأن الصمت مضرّ، وأن الصراحة فضيلة. والبوح، أي إخراج ما في مكنون النفس إلى الخارج أصبح مبدأ مهماً من مبادئ السلوك الفردي.

كان ذلك زمن ازدهار علم النفس: فقد غزت أشكال المعالجة الأمريكية الأسواق ومنها الألمانية أيضاً. «الكلام ثم الكلام ثم الكلام» بوصفه أهم سبيل للوصول إلى الصحة النفسية. والصمت أو الأسوأ منه، الكتمان، يُعدّان من أكثر أنماط السلوك ضرراً. الحقيقة فقط تريخ، حسب مبدأ نظرية علم النفس التي كنت أمامها وجهاً لوجه أثناء دراستي الجامعية.

بالفعل ليس فقط في حلقات البحث الأكاديمية، بل أيضاً في مجريات الحياة اليومية كان الناس في سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم يتناولون بالحديث كل شيء عن النفس بلا قيود. كانوا يعتقدون بالقوة الشافية للكلام، وكانوا يقصّون على بعضهم كل شيء وعلى نحو طوعي: مثلاً عن الخيانة الزوجية المرتكبة حقاً وكما حصلت بالفعل، وعن الوصول المصطنع إلى قمة الشهوة، وعن المخاوف من الإخفاق أو العزلة الاجتماعية وعن الأخطاء التربوية التي ارتكبتها الأهل، وعن الاعتداء الجنسي الذي قد يكون قد حصل أو حصل بالفعل في مدة الطفولة... الخ.

كان الكلام عن هذه الأمور مطلوباً أو متاحاً. فلم تكن هناك أي موضوعات محرّمة.

واتخذ التعطش للاعتراف أبعاداً متزايدة مع مرور الزمن. فلم يعد مقتصرأ على المجال الشخصي، بل غزا أيضاً بقوة الرأي العام. فقد ظهر في سوق الكتاب نوع جديد أو ما يعرف بأدب التجربة: نشر فيه المؤلفون والمؤلفات معاشاتهم الحميمة واعترفوا بأخطائهم واضطراباتهم، وكتبوا عن إصابات بمرض السرطان، وعن إدمان المخدرات، وعن حالات نفسية استثنائية واعتداءات جنسية في سنين مبكرة. أتذكر هنا كتباً مثل مارس Mars لمؤلفه فريتس تسورن Fritz Zorn (ابن مليونير ينمو دون حب، يصاب بالسرطان وينتقم من البيت والمجتمع). أو كتاب يوديث يانبيرغ Judith Jannberg (امرأة تكتشف تحقيق الذات) وغيرها من كتب بلغت آنذاك منزلة التقديس.

أما مارغريت دو مور Margriet de Moor فتدع في روايتها بعنوان: «رمادي ثم أبيض ثم أزرق» أحد شخصها يمعن التفكير في هذا الإكراه على الصراحة . . . إذا ما أردت ألا تقطع الروابط بينك وبين الآخرين فعليك أن تتكلم. ونحن معتادون أن يحكي بعضنا لبعض كل شيء، إنه عصر الصراحة، إنه عصر السيرة الذاتية».

لقد أصبح الحديث عن الذات مسألة عادية جداً. فإن كان المؤلفون لا يريدون أن يروا غالباً في الواقع إلا الوسط المحيط بهم على نحو مباشر، يبحث آخرون عن إطار أوسع جداً، فيظهرون أمام جمهور يُعدّ بالملايين. في الحوارات المتلفزة (الدردشات) أصبحت الآن كل الموضوعات قابلة للنقاش: الإدمان الكحولي والاكْتئاب والاعتداء الجنسي والمغامرات الشهبانية والإصابة بالسرطان وحالات الخوف ومشكلات في العلاقات وصعوبات الوصول إلى قمة الشهوة الجنسية والخيانة الزوجية والشذوذ الجنسي وأشياء أخرى كثيرة.

وكل أولئك الذين يسمحون بكل طواعية بالاطلاع على ألبوم حياتهم الشخصي، فإنما يفعلون ذلك لأسباب عديدة منها لأنهم يأملون عبر ذلك شيئاً: ألا وهو الارتياح، وراحة الضمير، وفي أحيان أخرى أيضاً الغفران. «الآن يقال لنا في كل مكان كم هو مفيد أن يخرج المرء من السرية، والكتمان والإخفاء وأن يصل في نهاية الأمر إلى البوح». هذا ما يؤكد المحلل النفسي فولفغانغ شميد باور Wolfgang Schmiedbauer. كهنة كاثوليكيون مع عشيقة (أو عشيقات كهنة كاثوليكين)، سياسيون منحرفون جنسياً

(لوطيون)، أو مربيات سحاقيات وموظفون تلاحقهم غوغاء زملائهم ورياضيون يتناولون منشطات وأطفال كورال يتعرضون للتحرش الجنسي ومتهربون من الضريبة وأهم شهود المافيا. كل هؤلاء يشرحون لنا مباشرة، أو عن طريق الناطقين باسمهم في وسائل الإعلام كم كان الصمت صعباً ومؤلماً، وكم يشعرون الآن بالراحة بعد أن نطقوا أخيراً.

### الحق بالصمت

يمكن للكلام والانفتاح أن يكون في بعض الحالات وفي الظروف المواتية مريحاً وشفافاً. الحالات التي ينطبق عليها ذلك وظروف حدوثها عالجهما هذا الكتاب بدقة في فصل «كشف النقاب عن السر - قرار صعب». لكن في كل الأحوال يجب عدم استخلاص أن للبوح دائماً أثراً إيجابياً على الحالة النفسية للإنسان، بل العكس تماماً.

«ماغدا» الشخصية الرئيسية في رواية «رمادي ثم أبيض ثم أزرق» لا تتوقف عند القانون غير المدون «كن منفتحاً». استطاعت أن تنعم بترف الصمت وتركت زوجها والأصدقاء وكل الناس الآخرين في غموض حول ماضيها القريب: غادرت البيت في وقت ما دون أي إعلان عن ذلك. لم يعرف أحد وجهتها. وكما اختفت فجأة عادت ذات يوم لتظهر فجأة أيضاً. فأين كانت كل تلك المدة؟ لماذا ذهبت؟ ولماذا عادت؟ ظلت صامتة ولم تقش سرها لأحد. صمدت في وجه أسئلة زوجها اليائسة مثل: «أين اختفيت؟» و«ماذا عملت؟» «لماذا أنت معقدة؟» بهذه الأسئلة كان يهاجمها ويحذّر قائلاً: «لا وجود لما لا يمكن الإفصاح عنه» كلهم أمطروها بالأسئلة. لكن «ماغدا» تحتفظ بسرهما. فقد احتفظت لنفسها بحق الصمت.

الصمت: هو الشيء الذي أثار أعصاب زوج «مارتا» وغيره من الناس الحقيقيين، كان قاعدة حياتية في الأزمنة القديمة. كانت قدرة المرء عن الصمت ومقاومة محاولة الجر إلى الكلام، فضيلة. فقد اقترح أوتتايشي، الأب الأول للثقافات السومرية والبابلية في بلاد ما بين النهرين، على الناس منذ عام 1200 قبل ميلاد المسيح قائلاً:

لا تغر فاك، واحفظ شفيتك!

لا تبح فوراً بما في سريرتك من كلمات!

فإن تكلمت الآن بسرعة، فسوف تسحب كلامك فيما بعد!

وعليك أن تجهد عقلك في تعلم الصمت!

ويتحدث عالما الاجتماع نيكلاس لومان Niklas Luhmann وبيتر فوكس Peter Fuchs أن الصمت كان حتى القرن السابع عشر يُعد فضيلة. وكان معلوماً لدى من عاشوا في الأزمنة القديمة «من يصمت يمكنه أن يتكلم دائماً، أما من تكلم فلن يستطيع أن يصمت».

أما إمكانية احتفاظ الإنسان بأفكاره ورغباته، ترفع من قدره، ولذلك كان فن التصنع في بلاط الحكام محموداً جداً حتى بداية القرن الثامن عشر.

إلى ذلك يشير الصحفي والكاتب آدم سوبوشنسكي Adam Soboczynski ويقتبس لنا عن أحد الناصحين آنذاك فيقول: «لا متعة باللعب بأوراق مكشوفة ولا حكمة فيه» لكن هذه الحساسية تجاه التعامل الصحيح مع الصراحة والسكوت ضاعت مع مرور الزمن. وأصبح يُنظر للمجال الشخصي، بصورة متزايدة، على أنه رصيد جدير بالصون والمحافظة عليه.

ما قد قيل فقد قيل. هذا ما عالجه عالم النفس كولن غولدنر Colin Goldner عبر ضيوف برامج الدردشات. وخلاصة ما قاله كانت على نحو مخيبة للأمل: «إن الإدراك بأنهم ظهروا وبالفعل أمام جمهور يُعدّ بالملايين، لا يدهم ضيوف برامج الدردشة عادة إلا بعد مضي مدة طويلة على ظهورهم في البرنامج؛ أي عندما يبدأ الناس في محيط سكنهم بالكلام معهم في الشارع فيجدون أنفسهم فجأة مضطرين لتبرير ما قالوه. ماذا تفعل أم تبين لها فجأة بأن الجميع، الأقارب والمعارف وجميع قاطني البناء، باتوا يعرفون بأن ابنها يسير في طريق الشذوذ الجنسي؟ قد يكون الإفصاح عن سر طال كتمانها كثيراً مريحاً في اللحظة الأولى تحت شعار: «أخيراً لم أعد مضطراً للتخفي» إلا أن آثار ذلك لا يمكن التنبؤ بها البتة.

هناك بالتأكيد فرق بين أن يعرّي الإنسان نفسه أمام جمهور يُعدّ بالملايين وبين أن يبوح بسر لأحد أصدقائه. لكن أثر ذلك يمكن أن يكون واحداً عندما يندم على صراحته عقب الإفشاء بالسِر. وعلى أي حال عليه أن يتحمل الشعور بالخجل الذي ربما يضايقه فيما بعد، كما عليه أن يتحمل ردود فعل الآخرين.

ينطبق على ضيوف برامج الدردشة ما ينطبق أيضاً بأسلوب مشابه على جميع الناس الذين يتكلمون أولاً ويفكرون فيما بعد. عليهم أيضاً أن يهضموا المعرفة المؤلمة بأن الكلام ليس في كل مرة يحزر الشخص، وأن الصمت كان يمكن أن يكون الخيار الأفضل.

في كثير من الحالات يكون الشعور بالذنب والخجل، وكذلك التجريح وسوء التفاهم والصراعات بين الناس نتيجة الصراحة الزائدة. فليس



من الضروري أن يجعل إخراج مكونات الإنسان إلى العلن الناس أكثر قرباً من بعض، بل العكس. فعندما لا تبقى هناك أسرار بين الناس تزول أيضاً مسافة الأمان بينهم. عند ذلك تزول نقاط العلام النفسية التي يحتاجها كل إنسان للحفاظ على كيانه الشخصي.

## ما الذي تخفيه؟

جُلُّ الناس لا يعرفون الدور الذي تؤديه، أو يجب أن تؤديه، الأسرار في حياتهم. ومن أول نظرة عابرة على الظاهرة نرى أن لكل مرحلة من مراحل العمر أسرارها، حتى الدولة والمجتمع لا يقومان إلا بها.

## أسرار الطفولة واليافعة

للأسرار أهمية أساسية في حياة كل إنسان، لا تقل عن أهمية الغذاء والجنس. سنوات العمر الأولى فقط، قبل أن يستطيع الطفل التمييز بين ذاته وذات الآخرين، هي التي تخلو من الأسرار. يفصح الأطفال الصغار دائماً عما يفكرون به، ولا يستطيعون بعد إخفاء أي شيء، أو بالأحرى يعتقدون بأن الناس الآخرين خاصة الأم والأب يعرفون دائماً بالضبط ما يعمل في أنفسهم. لكن اعتباراً من سن الخامسة، وعندما يعي الطفل ذاته المستقلة، يبدأ التعامل بالأسرار. تكون لدى الطفل في بداية الأمر أسرار صغيرة: فهو يكتُم الأماكن التي يختبئ بها والتي يقيم فيها، والتي يجب ألا يعرف عنها أحد شيئاً، حتى أقرب أصدقائه لديه. فهو لا يبوح بالهدية التي سيقدمها لوالدته بمناسبة عيد ميلادها، أو يفتش بعد أن يكبر -سراً- في مكتبة الوالدين عن كتب «ممنوعة».

إنها أسرار بريئة لكنها أيضاً نقاط علام في تطوره النفسي. واللحظة التي يكتشف فيها طفل بأنه قادر على إخفاء شيء عن الوالدين ويعيشها مستقلاً عنهما هي لحظة حاسمة. بذلك يكون قد قام بالخطوة الأولى نحو الاستقلالية. إنها لخطيئة تربوية فادحة عندما يوهم الأمهات والآباء أطفالهما بأنهما قادران على كل شيء ويعرفان كل ما يفكر به طفلهما أو ما يضمره. فالزعم بالقول: «أستطيع أن أرى أنك تكذب بمجرد النظر إليك» أو «لا يمكنك أن تخفي شيئاً عني» يحول في ظل هكذا ظروف دون تحقيق التطور السليم للشخصية المستقلة.

تبدأ أولى الأسرار البريئة لمدة الطفولة في مرحلة المراهقة. تلي أولى الأسرار البريئة لمرحلة الطفولة أسرار مرحلة المراهقة، تلك الأسرار التي تساعد على النمو وعلى الاستقلالية وتحديد الهوية الذاتية. «اعتباراً من سن الثانية عشرة تقريباً يفرق اليافعون بين الخاص والعام ويصبحون مستعدين ببساطة لإطلاع آخرين على معلومات شخصية». هذا ما توصلت إليه عالمة النفس انغه زايفه كرينكه Inge Seiffe Krenke في دراساتها مع اليافعين. أما القضايا الحميمة فلم تعد تبحث مع الوالدين، بل حصراً مع أصدقاء وصديقات مختارين، أو حتى مع دفتر المذكرات فقط.

### الأسرار: دروع واقية عند البالغين

تقوم الأسرار بالنسبة للبالغين بوظيفة دروع وقاية. فهي التي تحافظ على مسافة الأمان بينهم وبين الفضوليين. بعض الناس يكتمون عن الأهل والأصدقاء ميولهم الجنسية. وكذلك أيضاً غالباً ما لا يتحدث المرء عن

مشكلات جسدية مثل الأمراض المزمنة ومشكلات الإدمان والاضطرابات النفسية أو أحداث تثقل الكاهل مع أحد، أو على أعلى تقدير فقط مع قلة من الأشخاص المختارين.

وفي دراسة أمريكية كان مطلوب من المشاركين أن يقرروا في أي مجال من المجالات الخمسين الموصوفة تقع أسرارهم. ومن الإجابات برزت أربعة موضوعات رئيسة للأسرار:

- 1- هموم (الوحدة مثلاً).
- 2- المخالفات (سرقة - غش)
- 3- ذنوب (سوء استخدام المخدرات، أفكار سيئة، سلوك غير أخلاقي)
- 4- مخاوف (الخوف من عدم اجتياز الامتحان)

وغالباً ما تكتم الذين شاركوا في الاستبيان عن همومهم بالدرجة الأولى، تلتها المخالفات المنبوذة اجتماعياً، ثم جاءت بعدها الذنوب. أما المخاوف فهي النقطة التي أجاب عنها المشاركون في الدراسة بكل أريحية.

وتظهر الأسرار حتى في المجال الذي ترمي إليه، وهو الكشف عن أسرار في صالح الشخص المعني، في المعالجة النفسية مثلاً. وقد سألت الباحثة أنيتا. أ. كيلي Anita. A. Kelly 42 شخصاً يخضع للعلاج النفسي بعد 12 جلسة علاج - كمعدل وسطي- فيما إذا أخفوا شيئاً عن المعالج أو المعالجة. فأجاب أكثر من 40% منهم بـ «نعم». وبعضهم لم يتحدث علناً عن صعوبات في العلاقات. والبعض الآخر رفض الحديث عن مشكلاتهم الجنسية، وأخفى آخرون مشكلات تعاطي المخدرات أو السلوك الإجرامي.

## أسرار مشتركة

ليس من الضروري أن يقتصر السر على فرد بعينه. يمكننا أن نتقاسم الأسرار مع ناس آخرين لتنمية الشعور بالارتباط بهم عن طريق هذا الأسلوب. شخصان متحابان يتبادلان أسرارهما عن حياتهما السابقة. عن الأمور الجنسية وعن مخاوفهما وهمومهما وعن صفات شخصية وغير ذلك من أمور. بهذا الأسلوب يضعان حداً غير مرئي بينهما وبين الآخرين ويبيدوان بأن كل منهما تابع للآخر. فالسر المشترك يرمز إلى الرابطة القوية التي تقوم بين الشركاء. لكن المحبين أيضاً لا يروون كل شيء - إن كانوا أذكياء - فلا يسردون على الشريك كل تفاصيل ماضيهم، ويحفظون أنفسهم من الفضول الزائد، وفي الوقت نفسه يحفظون الشريك من الغيرة التي قد تكون أحياناً زائدة عن الحد ومصدر قلق دائم.

## السر والحياة الجنسية

تؤكد الدراسات القليلة والمتوافرة حول موضوع الأسرار، دائماً وأبداً بأن جل الأسرار تدور بوجه أو بآخر حول موضوع الجنس. والأمر نفسه أيضاً في بحث وجهت فيه أسئلة إلى 200 طالب وطالبة عما يخفونه عن أشخاص مهمين في حياتهم. فاعترف 22% منهم بأنهم أبقوا على علاقة جنسية باكرة طي الكتمان. و8% منهم أخفوا عن الشريك خيانتهم له. و14% لم يجدوا لديهم الجرأة على الاعتراف أمام الشريك بأنهم لا يضمرون مشاعر إيجابية تجاهه. 8% جعلوا من مشاعرهم الحقيقية سراً. «أحب صديقاً لكن لا أجد لدي الجرأة لأقول له ذلك» 4% ما زالوا

يحبون الشريك السابق لكنهم يخفون ذلك عن الشريك الحالي. 4% أيضاً أخفوا عن الشريك بأن العلاقة معه لا مستقبل لها. 3% لم يصرحوا بأنهم تعرضوا لاعتداء جنسي في طفولتهم. 3% أيضاً اعترفوا بأنهم قد تدخلوا سرّاً بحياة آخرين، باطلاعهم على دفتر مذكراتهم مثلاً.

وفي دراسة أخرى سئل 85 شخصاً فيما إذا كان لديهم سر لم يفصحوا عنه لأحد بعد. هنا أيضاً ذكر 28 منهم موضوعاً جنسياً (مثل الاغتصاب، تجارب جنسية، أو ممارسة الجنس لقاء مبلغ من المال). 17 منهم اعترفوا بأنهم يرغبون بشخص ما بالسر أو لهم علاقة حب سرية و12 منهم تحدثوا عن أسرار عائلية (التحرش الجنسي في مرحلة الطفولة أو البطالة). 10 وصفوا شذوذاً في العلاقات بين الناس. 4 مارسوا الغش (في الاختبار مثلاً). 3 تحدثوا عن اضطرابات في الأكل. 3 ذكروا الإجهاض والحمل سرّاً. شخص واحد فقط كتم عن الآخرين مشكلاته الصحية.

تكشف هذه الدراسات عن اتجاه واضح: وهو أن الأسرار تؤدي دوراً كبيراً في العلاقات الوثيقة. فالمحبون يكتُمون حياتهم الجنسية السابقة، ويحفظون أسرارهم عندما يتعلق الأمر بحالة الشراكة أو يجعلون من قلوبهم مقبرة عندما يقعون في الحب.

### السر والمجتمع

الدولة أيضاً تحمي نفسها عن طريق الأسرار والدبلوماسية السرية من تطفل الدول الأخرى أو من الاعتداءات الخارجية. وتبقي المؤسسات

الاقتصادية على خطط تطورها طي الكتمان لوقايتها من التجسس الصناعي. المعالجون النفسيون والأطباء يحافظون على مرضاهم عبر واجبه بكتمان أسرارهم.

وإليكم نص قسم إبقراط: «أقسم ألا أفشي ما أراه وما أسمع في عيادتي أو خارجها في تعاملتي مع الناس وكل ما لا يجب أن يطلع عليه الآخرون لقناعتني بوجود إحاطة هذه الأمور بالسرية الكاملة».

وكذلك المحامون يجوز لهم التكتّم -من أجل حماية زبائنهم- حتى أمام سلطات الملاحقة القضائية. وإضافة إلى ذلك يوجد في مجتمعنا أيضاً العديد من الأسرار الأخرى:

- سر المنصب: هناك معلومات معينة لا يحق إلا لمجموعة صغيرة من الموظفين في دائرة رسمية بالاطلاع عليها. وعلى حملة الأسرار هؤلاء كتمان هذه المعلومات.
- سر المصرف: لا يجوز للمصارف إفشاء المعلومات للآخرين حول ودائع زبائنهم.
- سر الاعتراف: لا يجوز لرجال الدين على الإطلاق الكشف عما أئتمنهم عليه شخص أثناء الاعتراف الكنسي.
- سر الرسائل: يضمن الدستور عدم المساس بسرية الإرساليات البريدية.
- سر التحرير: يمكن للصحفيين التكتّم عن مخبريهم والمصادر التي استقوا منها تحرياتهم، وليسوا مجبرين على التعريف بهم أمام جهات أخرى (السلطات مثلاً).

## سر شائق

للأطفال أسرارهم ولليافعين وبالغين أيضاً أسرارهم. للزوجين أسرارهما المشتركة. وأسرار يكتهما أحدهما عن الآخر، للوالدين أسرار يخفونها عن الأطفال. للأسر أسرار تكتنها عن الآخرين، وللدولة أسرارها. الأطباء والمعالجون النفسانيون ورجال القانون يحافظون على أسرار موكلهم وزبائنهم. وتُظهر هذه العينة الصغيرة أهمية الصمت حيال وقائع معينة في حياتنا. وسوف نشرح بوضوح في الفصول القادمة وجوب عدم الاستهانة بأهمية ذلك مطلقاً.

انطلق إلى عالم الأسرار الشائق وتعرّف فيه تنوع الأشكال التي يتجلى فيها. واكتشف لماذا للأسرار أهمية كبيرة في حياة الأطفال واليافعين. وأدرك مهام الوقاية التي تقوم بها الأسرار الجيدة، ولماذا لا يمكن تحقيق أهدافنا أو تأمين علاقاتنا بالشركاء إلا بمساعدتها. والشيء الأكثر إثارة هو أن الأسرار تؤمّن لنا حياة ثانية إلى جانب الحياة العادية، بل يمكن أن تكون لدينا أسرار نخفيها حتى عن ذاتنا.

عند قراءة كتاب هذا سوف تهز رأسك باستياء في هذا الموضوع أو ذلك، أو قد يصل بك الأمر إلى الاعتراض بغضب. حسناً. إذاً والحالة هذه تكون قد أصبحت تقتفي أثر الطبيعة الحقيقية للأسرار. للأسرار وجه Janus<sup>1</sup>، «يمكن أن تهبنا الشعور بالقوة والرفعة والتفرد والإخلاص، أو بالخوف والذنب والإرهاق والخجل. يمكن للأسرار أن تخدم أنبل بل وأخبث النوايا». كما قالت عالمة النفس الأمريكية Harriet. G. Lerner.

هذا القول تؤيده أيضاً الخبيرة في موضوع الأسرار سيسيلا بوك Sissela Book إذ كتبت تقول: «الأسرار ضرورة حياتية للإنسان مثل النار ويخشى منها كما يخشى من النار. فالأسرار كالنار تقوي وتحفظ الحياة ويمكن أيضاً أن تخنقها وأن تسبب الخراب ثم تنتشر دون السيطرة عليها. كلاهما يمكن أن يحافظ على الجو الحميمي أو ينتهكه، كلاهما يمكن أن يكون عماراً أو دماراً».

الأسرار عبارة عن مركب. إنها تتعارض مع «صيغ الحلول البسيطة» كما تقول الخبيرة في شؤون الأسرار والأسرة إيفان امير بلاك: «لأنها نادراً ما يمكن إيداعها نظيفة في الدرج وانتهى الأمر». ومن يقترب من الأسرار بفضولية عليه أن يحسن التمييز، أن يتحرر من إصدار الأحكام العامة المتسرفة من هذا المبدأ الأخلاقي أو ذاك. إن ذلك ليس سهلاً ويتطلب القدرة على عدم فقدان التوازن نتيجة تعدد طبقات الأسرار؛ لأن التعامل مع الأسرار يمكن أن يتطور بسرعة ليصبح «لعبة توازن على حبل مشدود في السيرك».